سلسلة التفسير الأصوليّ

الكتاب السادس

المنهج الأمثل لمواجهة المصائب والمشكلات

المنهج الذي لا يسعك جهله

د. محمد بن بشر القباطي

mhmdalqbty1@gmail.com

1442هـ-2021م

كوالالمبور

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وبعد، فإن الحياة كلّها ابتلاء، ولا بدّ للإنسان من مواجهة المشكلات والمصائب الدينيّة والدنيويّة. وقد قدّم لنا ربُّنا عزّ وجلّ في القرآن الكريم منهجًا موزونًا لعلاج المشكلات، والأزمات، والمصائب بقسميها: الدينيّ والدنيويّ. والقرآن الكريم كلّه يهدي للتي هي أقوم في جلب الخير والنفع، ودرء الفساد والشرّ.

إنه المنهج الذي لا يسعك جهله!

فهل يمكننا الوقوف على أصول هذا المنهج القرآنيّ؛ لننتفع به في حلّ المشكلات، والأزمات، والمصائب؟

أقول: نعم، إن شاء الله تعالى، وأسأل الله تعالى العون على بيان ما لا يسعُ المسلمَ جهلُه من ذلك المنهج، وسأقتصر على دراسة خمس آيات من كتاب الله تعالى.

فقد بيّن الله تعالى لنا كيف نواجه مصائب الدنيا، في قوله الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ * أُولَئِـكَ عَلَـيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

ثمّ بـيّن لنـا بمنّـه وكرمـه خطـر المصـائب الدينيّـة، وكيـف نخـرج منهـا؟ في قولـه المجيـد: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَكْتُمُـونَ مَـا أَنْزَلْنَـا مِـنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى مِـنْ بَعْـدِ مَـا بَيَّنَّـاهُ لِلنَّـاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولَئِـكَ يَلْعَـنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَـنُهُمُ اللَّاعِنُـونَ * إِلَّا الَّـذِينَ تَابُـوا وَأَصْـلَحُوا وَبَيَّنُـوا فَأُولَئِـكَ أَتُـوبُ عَلَـيْهِمْ وَأَنَا التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

كمـا أن المصـائب والمشـكلات الجسـام تسـتوجب التفكيـك والتفتيـت، فكـذلك الطاقـات الكثـيرة المبعثـرة تسـتدعي حسـن التنظـيم واتبـاع سياسـة التخصّص؛ لإتقان توظيف الطاقات.

وقـد قسّـمتُ الدراسـة إلى مقدمـة، ومبحثـين، وخاتمـة، أسـأل الله تعـالى القبـول والعفـو والعافيـة لي ولجميـع المسـلمين. والله المسـتعان والهـادي إلى الصواب.

د. محمد عبده محمد بشر القباطي.

كوالالمبور.

1442 /12/11هـ

2021/7/21م

---

[1] سورة البقرة آية (155-157)

[2] سورة البقرة آية (159-160)

المبحث الأول: المنهج الأمثل لمواجهة المشكلات الدنيويّة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[3].

ها هو ربُّنا جلّ ثناؤه يرفع الحجاب عن بعض حقائق المستقبل؛ ليُطلعنا على شيء ممّا نحن قادمون عليه من الابتلاءات والشدائد؛ حتى نوطِّن أنفسنا ونتأهب، وهذه نعمة عظيمة، وفي ذكر أجناس الابتلاءات قبل وقوعها تنبيه وإنذار؛ لنُعدّ العدّة ونأخذ حذرنا، ونتأهب لمواجهتها ودرء شرورها، وأضرارها وفق سنن الله تعالى، فإن دفع الأضرار والمشاقّ عن الأنفس بما شرعه الله تعالى عبادةٌ يحبُّها الله تعالى، والعمل بسنن الله تعالى في دفع الأقدار المكروهة بالأقدار المرغوبة طاعة، وتركه معصية.

ثمّ إن الله تعالى بفضله ورحمته لم يكلنا إلى أنفسنا الضعيفة؛ لنكتشف كلّ ما يعيننا على دفع تلك المصائب، ولنعمل على تحصيله ونستعدّ به، بل جمع لنا نعمة التبصير بما نحتاج إليه، وجهّزنا بتلك العدّة، وزوّدنا بذاك الزاد، وجمعه بين أيدينا في كلمات طيبات مباركات، ووالله إنها لنعم عظام: نعمة الإعلام بمّا سينزل بنا قبل نزوله، ونعمة التبصير بما سنحتاج إليه؛ لمعالجة تلك النوازل، ونعمة التزويد بالعلاج نفسه من غير طلب ولا بحث، ونعمة العلم بثمرات الاسترجاع، والاسترجاع هو قول: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، ونعمة حصول تلك الثمار الطيّبة.

---

[3] سورة البقرة آية (155-157)

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم إحسانك. وهذه النعم مجتمعة في سياق واحد. فاجتمع في الآيات الثلاث دواعي الصبر، ونعمة الذكر، وموجِبات الشكر.

وسوف أبيّن أصولًا ممّا تضمّنته هذه الآيات في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الإعلام بما سينزل بنا من ابتلاء ومصائب قبل حصولها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

إن هذه الآية تتحدّث عن سنّة الابتلاء في سياق سنّة الصبر، ولسنّة الابتلاء وجهان: سنّة الابتلاء بالخير، وسنّة الابتلاء بالشرّ، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[4]، وقد ذكر ربّنا عزّ وجلّ وجهًا واحدًا من وجهي الابتلاء ألا وهو الابتلاء بشيء ممّا تكرهه الأنفس، وهو وارد في سياق سنّة الله تعالى في الصبر وجزائه. وقد أعلم الله تعالى بهذه الآيات عباده المؤمنين ب"أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه؛ فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله، ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا"[5].

[4] سورة الأنبياء آية (35)

[5] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج54/2

إن الإعلام بالابتلاء وبيان أنواعه نعمة، وتخفيف الابتلاء نعمة: ففي جعله بشيء من الخوف والجوع تقليلًا وتهوينًا نعمةٌ، وفي جعله نقصًا وليس استئصالًا نعمةٌ، وفي ذكره مرتبًا بالتدريج من الأخفّ إلى الأثقل، وفي ختمها بما يوحي بالتخفيف رحمةٌ، ومن رحمته ونعمته أنه لم يفتح علينا أبواب زينة الحياة الدنيا وزُخْرُفِها ابتلاء؛ لأنها أشدّ فتكًا بالقلوب، وكثيرًا ما تفضي إلى الاستدراج الذي لا نجاة معه، ولذا خشي علينا منها الرسولُ عليه الصلاة والسلام، فقال: "فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُم"[6]، وفي الدلالة على علاج الابتلاء وبيان عاقبته نعمةٌ، وفي الإكرام بذلك الجزاء: صلوات من ربّهم، ورحمة، وهدى، وأجر، وإخلاف بخيرٍ نِعمة.

وقد اعتنى المفسرون في بيان مقاصد الابتلاء من رفع الدرجات، وتكفير السيئات، وتزكية الأنفس، وتقوية العزائم، والتمحيص، وإقامة الأَوَد (العوج)، قال الإمام الطبريّ: "وهذا إخبار من الله تعالى ذكره أتباعَ رَسوله صلى الله عليه وسلم، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم"[7].

وثمّة مقاصد قلّ التعرُّض لها، ومنها ترسيخ أسس العقيدة الصحيحة الجامعة بين التسليم لله تعالى والرضا بقضائه، والتوكّل عليه والعمل

---

[6] رواه البخاريّ ح4015، ومسلم ح7614

[7] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 219

بالأسباب والسنن الدافعة للبلاء وآثاره، فالآيات تدعو المؤمنين إلى الأخذ بالأسباب والعمل بسنن الله تعالى؛ ليدفعوا الأقدار المرهوبة بالأقدار المرغوبة؛ حتى لا يعطِّلوا سنن الله تعالى الكونيّة، ويتكلوا ويتكاسلوا زاعمين أنهم راضون بأقدار الله تعالى، متوكّلون على الله تعالى. وإن مَثَلَ من يدعو الناس إلى الاستسلام للأقدار المخوفة وما تحمله من الأضرار، كمثل قائد عسكريّ توّاق إلى روضات الجنات أَبلغَ عدوَّه الكافر بمكامن ضعف الجيش المسلم؛ ليقتلهم عدوُّهم فينالوا الشهادة! ولقد لقَّنَتْ العالمَ جائحةُ "كورونا" دروسًا بليغة في حسن التعامل مع أقدار الله تعالى، ولا تزال!

والأدلّة الآمرة بجلب النفع ودفع الضرّ والشرور، والناهية عن ارتكاب أسباب الفساد وما يضرّ كثيرة جدًّا، فيجب على المؤمنين الاستعداد لدفع المصائب والشدائد المضرّة بدنيا الناس، ودينهم، ما أمكن، فالجوع يطرد بالتزوّد، وخوف العدو يزال بحسن إعداد القوّة، وتطوير الطبّ والوسائل الصحيّة يدرأ الأمراض، فما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، فالواجب العمل بأحسن الأسباب والبرامج المدنيّة والعسكريّة؛ لكي نجلب المصالح، وندفع الشرور، ونخفّف الأضرار. قال العلّامة محمد رشيد رضا: "ولنمتحننكم ببعض ضروب الخوف من الأعداء، وغيره من المصائب البشرية المعتادة في المعايش، وأكّد هذا بصيغة القسم لتوطين الأنفس عليه، فعلّمهم به أن مجرد الانتساب إلى الإيمان لا يقتضي سعة الرزق وقوة السلطان، وانتفاء المخاوف والأحزان، بل يجري ذلك بسنن الله تعالى في الخلق، كما أن من سنن الخلق وقوع المصائب بأسبابها. وإنما المؤمن الموفق من يستفيد من مجاري الأقدار، إذ

يـــتربى ويتـــأدب بمقاومـــة الشـــدائد والأخطـــار، ومـــن لم تعلمـــه الحـــوادث، وتهذبه الكوارث، فهو جاهل بهدي الدين، متبع غير سبيل المؤمنين"[8].

أقســـام الابـــتلاءات وترتيبهـــا: قـــال الله تعـــالى: "وَلَنَبْلُـــوَنَّكُمْ بِشَـــيْءٍ مِـــنَ الْخَـــوْفِ وَالْجُـــوعِ وَنَقْـــصٍ مِـــنَ الْأَمْـــوَالِ وَالْأَنْفُـــسِ وَالثَّمَـــرَاتِ". وسأضـــعها في قسمين على ظاهر الآية:

القســـم الأول: الابـــتلاء "بِشَـــيْءٍ مِـــنَ الْخَـــوْفِ وَالْجُـــوعِ"، تنكـــير لفـــظ "شـــيء" للتقليـــل، والتخفيـــف، والخـــوف والجـــوع أثـــران مـــن آثار المصـــائب في نفـــس الإنسان.

وأولهمـا ذكـرًا الخـوف ومحلّـه القلـب، وهـو توقّـع المكـروه المـؤذي، فيضـطرب القلـب، ويتـألم مـن ذلـك، وثانيهمـا: الجـوع، بسـبب نقـص الطعـام، وأثـر الخـوف أهـون مـن أثـر الجـوع، ولـذا بـدأ بـذكره، فـأذى الخـوف يطـال القلـــوب، فيزعجهـــا، ويـــذهب أمنهـــا، وســـكينتها، وأمـــا ألم الجـــوع وأذاه فيـوهن الأبـدان، ويشـوش الأذهـان، ويُقْعِـد النـاسَ صـغارًا وكبـارًا. وممّـا يـدلّ علـى أن الخـوف أخـفّ مـن الجـوع تقـديم الجـوع في سـياق التحـذير مـن العقوبـة، قـال الله تعـالى: ﴿فَكَفَـرَتْ بِأَنْعُـمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَـا اللَّهُ لِبَـاسَ الْجُـوعِ وَالْخَـوْفِ بِمَـا كَـانُوا يَصْـنَعُونَ﴾[9]، ولمـا كـان التعـذيب بالجـوع أشـدّ، عجّـل بـذكره ترهيبًـا، وأمـا تقـديم ذكـره في سـياق التـذكير بـنعم الله تعـالى، ففيـه زيادة امتنـان كمـا قـال الله تعـالى: ﴿الَّـذِي أَطْعَمَهُـمْ مِـنْ جُـوعٍ وَآمَـنَهُمْ مِـنْ

[8] رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة طبعة 1990 م ج32/2

[9] سورة النحل آية (112)

خَوْفٍ﴾[10].

إن الجوع والخوف أخفّ المذكورات الخمس في ابتلاء المؤمنين، فبدأ بهما؛ لأن البدء بالأخف فيه تلطُّفٌ ورفقٌ. فإذا ذهب الجوع والخوف عاد الإنسان سويًّا كما كان.

القسم الثاني: الابتلاء بنقص "مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ"، والتنكير للفظ "نقص" يدلّ على التقليل، والتخفيف؛ لأن الانتقاص يدلّ على أخذ القليل، وترك الأكثر، ولم يجعل الله تعالى البلاءَ أخذَ استئصالٍ، بل هو شيء من النقص، وهذه الأجناس هي:

الأول: الأموال: وتشمل جميع الأموال: الدينار، والدرهم، والتجارات، والأنعام، والزروع، والثمار وغيرها، من الأموال.

الثاني: الأنفس: والنقص منها يشمل نوعين:

النوع الأول: نقص عَدد المؤمنين بهلاك بعضهم بالقتل، أو بالمرض، أو غيرهما، ونقص الأنفس بفقدها بلاءٌ واقع على غير المفقود؛ لأن المفقود من المؤمنين الصالحين قد استراح من عناء الدنيا، وقد يترك أيتامًا، وأرملة، وأمًّا ثكلى، وأبًا شيخًا كبيرًا، فيلحق الضرر بوفاته من يعولهم، وقد يكون ذا نفعٍ عامّ، وأما إن كان فاجرًا شقيًّا، فمستراح منه، كما جاء عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ

[10] سورة قريش آية (4)

يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلاَدُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"[11].

النوع الثاني: نقص جزئيّ، كنقص بعض الأعضاء كالأطراف، وغيرها، ونقص بعض وظائف الأعضاء: كالسمع، والشَّمّ، والبصر وأثر هذا الابتلاء واقع على صاحب البلاء نفسه وعلى من حوله، فيكلفهم حمل أعباء العلاج، والرعاية وغير ذلك.

الثالث: نقص الثمرات: وهي أقوات الناس، وفواكههم، والثمرات نوع من الأموال، فَلِمَ أفردت بالذكر؟ ولم فُصِل بين الأموال والثمرات بالأنفس؟ والجواب: أن إفرادها بالذكر من بين الأموال للاهتمام والعناية، فإن حياة الناس لا تقوم إلا بالثمرات، وأما ذكرها بعد الأنفس، فقد بدت لي احتمالات، واطّلعت على توجيهات، وأحسن ما بدا لي حتى الآن –والعلم عند الله تعالى– أمور، منها:

الأول: أن الثمرات هي من حيث حقيقتها نوع خاصّ من الأموال، وأما من حيث منفعتها، فهي قوت ضروريّ لحفظ المُهج، وإقامة الأبدان، فنقصها يُدلي بنَسَبٍ صحيح إلى النقص من الأموال باعتبار الحقيقة، وإلى النقص من الأنفس باعتبار الأثر، ولذا حسُنَ إفرادها، وذكرُها بعدهما من قبيل ذكر الخاصّ بعد عامّين.

الثاني: أن سياق الآية فيه تخفيف، ورفق؛ لذا كان الختم بها ألطف وأرفق؛ لأن المتبادر إلى الذهن من نقص الثمرات حصول شيء من

[11] رواه البخاريّ ح6512، ومسلم ح2245

الجوع (حاجيّ)، ونقص من التفكُّه (وهو تحسينيّ)، وشأنهما أهون من نقص الأنفس.

الثالث: أن الآية تدعو بدلالة الإشارة إلى أخذ الحيطة والحذر والاستعداد لدفع ما هو نازل من الابتلاءات في هذه الأشياء؛ لأن الأخذ بالأسباب الممكنة، لدفع ما يتوقع من المصائب والكوارث، والشدائد وتخفيف أضرارها عن المؤمنين فريضة، ولا يجوز إلقاء الأنفس في المهالك والمشاقّ إلا فيما أذن الله تعالى به من دفع ما هو شرٌّ منه، أو تحصيل ما أهو أوجب ولا يتحصّل إلا بالإقدام والجهاد في سبيل الله تعالى، ولما كان فَقْدُ الثمرات وقلّتها عظيم الأثر في حياة الأمّة، وقد تكون مجلوبة من بلاد غير مسلمة، فتحول دون حصولها أسباب كثيرة، كالقحط في تلك البلاد، أو منع المسلمين من استيرادها ظلمًا أو غير ذلك، فيكون نقصها عندنا لا من جهة عجزنا عن شرائها وجلبها، بل بسبب إثم الأعداء وعدوانهم، وهذا ظاهر في حال الحروب والحصار، فإذا نقصت الثمار في بلادنا، كان ضررها على الأنفس أشدّ، وقد يرفع الأجانب سعرها، فيكون ضررها على الأموال بالغًا؛ لذا كان ذكرها صراحة حيث ذكرت أبلغ في التنبيه والتحذير؛ لاتخاذ الأهبة عملًا بسنن الله تعالى في دفع الابتلاءات، وردّ الأقدار المرهوبة بالأقدار المرغوبة، والله تعالى أعلم.

أقسام الابتلاءات من حيث درجة الضرر: الابتلاء بشيء من الخوف والجوع يورث الحرج، والعسر، فهو من جنس المشقات أي من رتبة الحرج اللاحق بالحاجيّات. وأما إذا اشتدّ الجوع (والآية وردت

بالتخفيف)، فإنه يفسد الحياة، ويضرّ بها، فيندرج حينئذ في نقص الأنفس، أي الأذى اللاحق بالضروريّات.

أما النقص في الأموال والثمرات فله حالان فإن كان النقص قليلًا يسيرًا، فإنه يكون من قبيل النقص في الحاجيّات أو التحسينات، وإن كان كثيرًا أضرّ بالضروريّات، وأما النقص في الأنفس فهو من الأضرار اللاحقة بالضروريّات.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ" اللام واقعة في جواب قسمٍ مقدّر، والفعل المضارع يدلّ على الاستقبال، وقد أكّد بهذا الأسلوب للجزم بوقوع هذا الابتلاء، فهذا نبأ عظيم عمّا سيحلّ في قابل الأيام (المستقبل) بالمؤمنين من ابتلاءات أو ما نسمّيه بالأزمات والمشكلات والتحدّيات، "بِشَيْءٍ" نكرة مطلقة مقيدة بالصفة بعدها، "من" للتبعيض، "أل" في "الخوف" للاستغراق، وكذلك في "الجوع" "وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ" "نَقْصٍ" نكرة مطلقة مقيدة بالصفة بعدها، "من" للتبعيض، "أل" في "الأموال" للاستغراق، وكذلك في "والأنفس"، "والثمرات"، "وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" الأمر للوجوب، الصابرين عامّ، صفة صريحة، فالصابرون لهم البشرى، وغيرهم محرومون من البشرى.

المطلب الثاني: التزويد بالعلاج: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

عرّفتنا الآية بالفائزين بالصبر على الابتلاء، والمجتازين الامتحان بنجاح. ولولا فضل الله تعالى علينا ورحمته ما اهتدينا إلى هذا القول المبارك، ولو نقّبنا عنه في أقطار السماوات والأرض، وها أنت تجد هذا العلاج بين يديك، وما عليك إلا أن تقوله حين تصيبك المصيبة، ولما كان البلاء شديدًا على الأنفس، خفّف الله تعالى وسيلة مواجهته ودفعه، فجعلها قولًا ميسورًا.

قال الإمام الطبريّ: "ثم أخبر تعالى ذكره –مع الذي ذكر أنه مُعطيهم على اصطبارهم على محنه، تسليمًا منهم لقضائه، من المغفرة والرحمة– أنهم هم المهتدون، المصيبون طريق الحقّ، والقائلون مَا يُرْضى عنهم والفاعلون ما استوجبوا به من الله الجزيل من الثواب"[12].

"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ"، الذين يعمّ كلّ من أصيب بمصيبة، وأداة الشرط "إذا" تدلّ على العموم، وعلى كثرة الوقوع، ولفظ "مصيبة" نكرة في سياق الشرط تعمّ كلّ مصيبة أصيب بها العبد الصابر.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا"[13].

[12] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 221

[13] رواه مسلم ح2165

قال العلّامة ابن القيّم: "وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلّى عن مصيبته.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضا فإنه محفوف بِعَدَمينِ: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضا فإنه ليس هو الذي أوجده من عدمه، حتى يكون ملكه حقيقةً، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقيّ، وأيضا فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقيّ.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحقّ، ولا بدّ أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربَّه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه""[14]، ثمّ ذكر رحمه الله تعالى قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ – لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ

[14] ابن القيّم، زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ج4/ 173

مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[15].

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"الَّـذِينَ" عـامّ، "إِذَا" عـامّ، "أَصَـابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ" "مُصِـيبَةٌ" نكـرة في سـياق الشـرط تعـمّ، "قَـالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ"، تقـديم الجـارّ والمجـرور: "إِلَيْـهِ" يفيد الحصر، ومفهوم المخالفة: لسنا راجعين إلى غير الله عزّ وجلّ.

[15] سورة الحديد آية (22-23)

المطلب الثالث: التبصير بثمرات الاسترجاع، وهذه الثمرات هي الأشياء التي سنحتاج إليها؛ لمعالجة تلك النوازل والمصائب، ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

القانون العامّ: أن الله مع الصابرين، وها هو يكشف لهم الستر عن سرّ عظيم ألا وهو ما يفتقرون إليه عند نزول المصائب، فهذه الآية تنادي بصوت ودود: أيها المبتلى بالخوف، والجوع، والفقر، والمرض، والقحط، أيها المبتلى في جسمه، أو ماله، وأهله، وولده، أنك بحاجة إلى عُدّة، وزاد، ونور؛ لتجتاز هذه البلوى، إنك محتاج إلى صلوات من ربّك، ورحمة، وهداية.

أيها المبتلى، أما آن أن تستبين لك هذه الأسرار؟ أما أدركت قدر الصبر عند الله تعالى؟ أفلا تكون عبدًا صبورًا شكورًا؟ ألا إن أكثر الناس لغافلون عن هذه الحقائق العظام التي لا تدرك إلا بالوحي، فطوبى لمن أيقن ثمّ اهتدى.

"صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ": الصلاة لغة: الدعاء، وهو طلب الحاجات من الله تعالى، فإذا أضيفت إلى الله تعالى حملت على ما يليق بجلاله وإفضاله، وإحسانه، والصلاة من الله تعالى الثناء، والكرامة، والخَيْرُ، والبركة، والمغفرة، ومن ثمار صلاة الله على العباد ما بيّنه بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[16]. وما أشدّ حاجة المبتلى إلى الخروج من ظلمات

[16] سورة الأحزاب آية (43)

المصيبة إلى نور التوفيق، والهداية، والعون، والرعاية.

"وَرَحْمَةٌ": والرحمة من الله واسعة، وبركاتها جامعة، فلا ممسك لها إذا فتح الله تعالى أبوابها، ولا مرسل لما أمسك، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[17] "ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها العدّ، ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخر له من حوله، ومن فوقه، ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه، ومما لا يعلمه، وهو كثير. يجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، يجدها في نفسه، وفي مشاعره، ويجدها فيما حوله، وحيثما كان، وكيفما كان. ولو فقد كل شيء مما يعدّ الناس فقدَه هو الحرمان.. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة يمسك الله معها رحمته؛ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من محنة تخفّها رحمة الله؛ حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو مهاد. وينام على الحرير، وقد أمسكت عنه، فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله، فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور، وقد تخلت عنه رحمة الله، فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار! ولا ضيق مع

[17] سورة البقرة آية (2)

رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في شعاب الهلاك. ولا سعة مع إمساكها ولو تقلّب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء.

يبسط الله الرزق مع رحمته، فإذا هو متاع طيب ورخاء، وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة. ويمسك رحمته، فإذا هو مثار قلق وخوف، وإذا هو مثار حسد وبغض، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار.

ويمنح الله الذُّرّيّة مع رحمته، فإذا هي زينة في الحياة، ومصدر فرح واستمتاع، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله. ويمسك رحمته، فإذا الذرية بلاء ونكد، وعنت وشقاء، وسهر بالليل، وتعب بالنهار!

ويهب الله الصحة والقوة مع رحمته، فإذا هي نعمة وحياة طيبة، والتذاذ بالحياة. ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم، ويفسد الروح، ويدخر السوء ليوم الحساب!

ويعطي الله السلطان والجاه مع رحمته، فإذا هي أداة إصلاح، ومصدر أمن، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر. ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما، ومصدر طغيان وبغي بهما، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان، ويدخر بهما للآخرة رصيدًا ضخمًا من

النار!

والجماعات كالآحاد، والأمم كالأفراد في كل أمر، وفي كل وضع، وفي كل حال.. ولا يصعب القياس على هذه الأمثال! ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك، وتغمرك، وتفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها، وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها، وتوقعها في كل أمر هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها. وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبدًا، ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾[18].

ورحمة الله لا تعزّ على طالب في أي مكان ولا في أي حال. وجدها إبراهيم – عليه السّلام – في النار. ووجدها يوسف – عليه السّلام – في الجبّ كما وجدها في السجن. ووجدها يونس – عليه السّلام – في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى – عليه السّلام – في اليمّ وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون، وهو عدوّ له متربص به، ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ». ووجدها رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار.. ووجدها كل من آوى إليها يأسًا من كل ما سواها. منقطعًا عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصدًا باب الله

[18] سورة يوسف آية (87)

وحده دون الأبواب"[19].

الاهتداء: "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" الاهتداء إلى المخرج من المصيبة، واتقاء شرورها، والاهتداء إلى تحصيل ما يصحبها من اليسر والخير. ومن تدبّر أحوال نفسه، وأحوال كثير من الناس يدرك قدر الافتقار والاضطرار إلى الهداية عند حلول المصائب؛ لأن آثار المصائب من المخاوف والأحزان تحجب العقول والبصائر، فتضطرب الأنفس، وتختلّ الموازين، وتتخذ القرارات على عجل، وتكثر ردّة الفعل على دَهَشٍ، فيزداد البلاء والخسران.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة:

"أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ" "صَلَوَاتٌ" نكرة موصوفة بما بعدها: "مِنْ رَبِّهِمْ" تعظيمًا وترغيبًا، ورحمة من ربهم أيضًا، "وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" "أل" للكمال، فلهم الهداية التامّة من ربّهم. قال الإمام الطبريّ: "يعني تعالى ذكره بقوله: "أولئك"، هؤلاء الصابرون، الذين وصفهم ونَعتهم –"عليهم"، يعني: لَهم، "صلوات"، يعني: مغفرة. "وصلوات الله" على عباده، غُفرانه لعباده"[20]. ومفهوم المخالفة كما قال العلّامة السّعديّ: "ودلت هذه الآية، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذمّ من الله، والعقوبة، والضلال والخسار، فما أعظم

[19] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط: 3، 2001، ج2921/5-2924 **بتصرف يسير**.

[20] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 222

الفرق بين الفريقين وما أقلّ تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخفّ وتسهل، إذا وقعت، وبيان ما تقابل به، إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر. وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلا وبيان أنواع المصائب[21].

وكأين من عبدٍ يحمل في صدره جحيمًا، فلما تدبّر هذه الآيات، واستجاب لأمر ربّه، أطفأها الله تعالى، وأبدله نعيمًا.

[21] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 1420هـ -2000 م، ج75/1

المبحث الثاني: المنهج الأمثل لمعالجة المصائب الدينيّة، والخروج منها سالمين غانمين:

لقد بيّن الله تعالى لنا كيف نواجه مصائب الدنيا، وكيف نعالج أزماتها، ونحلّ مشكلاتها في قوله الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[22].

ثمّ بيّن لنا بمنّه وكرمه خطر المصائب الدينيّة، وكيف نخرج منها سالمين غانمين؟ في قوله المجيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[23].

ها هو ربُّنا عزّ وجلّ بفضله ورحمته يتمّ نعمته علينا، فيبيّن لنا كيف ندفع المصائب إذا وقعت في ديننا؟ وكيف نعالج مشكلاتنا الدينيّة؛ حتى لا تهلكنا كما أهلكت من كان قبلنا.

وأول من أصيب بمصيبة في دينه، وأحاطت به خطيئته هو إبليس، فهو السابق فيها، والسائق إليها، فإنه لمّا أبى واستكبر لعنه الله تعالى وأخزاه، ثمّ أعلن إبليس عداوته وعزمه على إضلال ذرية آدم عليه السلام،

---

[22] سورة البقرة آية (155-157)

[23] سورة البقرة آية (159-160)

وإغـراقهم في ظلمـات المعاصـي والـذنوب. وقـد بـدأ بآدم عليـه السـلام وزوجـه، فأزلهمـا بمـا زيّنـه لهمـا مـن الباطـل الـذي اختلقـه ﴿فَوَسْـوَسَ إِلَيْـهِ الشَّـيْطَانُ قَـالَ يَاآدَمُ هَـلْ أَدُلُّـكَ عَلَـى شَـجَرَةِ الْخُلْـدِ وَمُلْـكٍ لَا يَبْلَـى﴾[24]، فتركـا هـدى الله تعـالى، واتبعـا الهـوى، فأخرجهمـا ممّـا كـان فيـه مـن النعـيم، ولكنّهمـا أفاقـا مـن الغفلـة، فاسـتدركا بالتوبـة تلـك الزلـة، فتـاب الله عليهمـا، قـال الله تعـالى: ﴿فَتَلَقَّـى آدَمُ مِـنْ رَبِّـهِ كَلِمَـاتٍ فَتَـابَ عَلَيْـهِ إِنَّـهُ هُـوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[25].

والتوبـة هـي أعظـم عُـدّة جهّـز الله تعـالى بهـا أبانا آدم عليـه السـلام وزوجـه حـين أُهبطـا إلى الأرض؛ ليعالجـا بهـا الزلـل، ويسـدّا بهـا الخلـل، وقـد وعـد الله تعـالى آدم عليـه السـلام بأن ينـزل عليـه وعلـى ذريّتـه الهـدى؛ ليقومـوا بأمـر الخلافـة في الأرض علـى أحسـن وجـه، فتطيـب حيـاتهم في الـدنيا، ويفـوزوا بنعـيم الجنّـة، قـال الله تعـالى: ﴿قُلْنَـا اهْبِطُـوا مِنْهَـا جَمِيعًـا فَإِمَّـا يَأْتِيَـنَّكُمْ مِـنِّي هُـدًى فَمَـنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَـلَا خَـوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ﴾[26]، وقـال الله تعـالى: ﴿قَـالَ اهْبِطَـا مِنْهَـا جَمِيعًـا بَعْضُـكُمْ لِـبَعْضٍ عَـدُوٌّ فَإِمَّـا يَأْتِيَـنَّكُمْ مِـنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[27].

وبهـذا يتبـيّن لنـا أن الـذين يكتمـون مـا أنـزل الله تعـالى مـن البيّنـات والهـدى إنمـا يُحـادّون الله تعـالى، ويُشـاقُّونه، ويعملـون علـى إبطـال مـراده، وتعطيـل

[24] سورة طه آية (120)

[25] سورة البقرة آية (37)

[26] سورة البقرة آية (38)

[27] سورة طه آية (123)

مقاصد شرعِه بكتمانهم الهدى ودين الحقّ عن الناس، وحجبِهم النورَ عن العباد، وعاقبة ذلك الضلال والشقاء.

إن في هاتين الآيتين تحصينًا الأمّة وتمكينًا، فالآية الأولى بيّنت الداء (كتمان ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى) الذي أصاب الأمم الناكثة من أهل الكتاب، ففيها تحصين وتحذير من أخطر أسباب ضلال الأمم، فالعلماء والدعاة ورثة الأنبياء فهم أئمّة الهدى، ينيرون السبيل، وبهم يقتدى، فإذا حملة البيّنات والهدى، فسدت الأمّة، وقد سلب الله تعالى الأمم التي كتمت الهدى منصبَ الإمامة، وقد استخلف من بعدها أمتنا الوارثة، والآية الثانية بصرتنا بالدواء الشافي، والمخرج البيّن من هذه الفتنة.

وسوف أوجز القول في هذا الموضوع تأصيلًا وتنزيلًا، وأُبين الأخطاء والأخطار، وأُجلِّي الفرص، وسأجعل حديثي بإذن الله تعالى في مقدّمة وثلاثة مطالب.

المقدّمة:

كنت أتساءل: لِمَ أرجأ الله تعالى الحكم على الذين كتموا الحقّ، وهم يعلمون حتى هذا الموضع؟ ألم يحرموا البشريّة منفعةَ ما استُحفظوا عليه من العلم والشهادة بصدق الملّة الخاتمة والقبلة الناسخة كما بيّن الله تعالى ذلك بقوله المجيد: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[28].

وخطاب الله تعالى حكيم كريم لا يعجّل شيئًا قبل أوانه، بل يمهل العباد رحمة منه وحكمة؛ حتى يستوفي كلّ ذي حقّ حقّه، وقد تبدّى لي أن الله تعالى حين ذكر حال الكاتمين الآثمين وأفعالهم لم يُفلتهم طُلقاء، ولم يتركهم سُدى، بل استبقاهم وحبسهم في ربقة السياق؛ ليشهدوا كيف يبسط الله تعالى فضله ورحمته للمؤمنين، وكأني بهم ينظرون إلى مواكب نِعَم الله تعالى وبركاته تتنزّل من السماء وتخرج من الأرض!

وإن من الحكمة أن تحبس العدوّ؛ ليرى ما عندك من العزّة والقوّة؛ فيجزع، ويخضع، كما فعل رسول الله تعالى بأبي سفيان أيام الفتح، وليشهد مشاهد الإنعام والإكرام فيطمع! وقد أمهل الله تعالى الكاتمين الحقّ؛ ليسمعوا آياته، ويروا ما أنعم به على المؤمنين في تلك الآيات المباركات، وقد اكتملت العِبرة لمن اعتبر، فتاب من تاب وأصلح، وبيّن،

[28] سورة البقرة آية (146-147)

وأما من أبى واستكبر، وكفر، فقد ملأ الله تعالى صدره غيظًا وحسرة وألحقه بسلفه إبليس، ونُبذ بعراء اللعنة مذؤومًا.

وفي هذا الموطن من السياق يطلق ربّنا عزّ وجلّ الذين كتموا البيّنات والهدى بعد استيفاء العبرة بالإمهال؛ لعلّهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا، وقد امتلأت قلوب المستكبرين حسرة وغيظًا بما شهدوه من إكرام المؤمنين، وبما حاق بالكاتمين من السوء، فقد حقّ عليهم القول، ولزّهم السياقُ في قرَنٍ مع كلّ الكاتمين البيّنات والهدى من كلّ الأمم؛ ليصبّ عليهم سوط وعيده! ولقد كرّم الله تعالى بهذا الأسلوب المؤمنين من جهتين:

الجهة الأولى: الإخبار عن استمرار أهل الكتاب ومن شاكلهم في كتمان البيّنات والهدى، واستدامتهم العداوة لديننا؛ لنأخذ حذرنا وأهبتنا، فندفع فسادهم، ونتقي شرورهم، ونجتنب سُنّتهم الخبيثة.

الجهة الثانية: إسعاد المؤمنين بإيصال العبرة إليهم من غير أن يمسّهم طائف وعيد أو ذمّ، فالسعيد من وُعظ بغيره.

المطلب الأول: تحديد المصيبة وبيان عاقبتها:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[29]. لقد بيّن لنا ربّنا عزّ وجلّ حقيقة المصيبة وعرّفنا بالذين

[29] سورة البقرة آية (159)

وقعوا فيها بأسلوب من أساليب التعليل والسببيّة[30]، فالسبب هو كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى، والنتيجة هي اللعنة، فهذا قانون عامّ وسنّة مطردة لمن كان له قلب، وقد ورد الخطاب بأسلوب الاستئناف والاستقلال عمّا سبقه؛ لأن الآية تتحدث عن طائفة خبيثة من حزب الشيطان، فمن وقع في هذا الإثم العظيم (كتمان البيّنات والهدى)، فهو عدُوٌّ لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين، وليّ للشيطان وحزبه حقيق بأن يفصل ويعزل عن خير أمّة، فيفرد بالذكر ويبعد، ومَن سلك من أبناء المسلمين مسلك اليهود والنصارى في الكتمان، فهو منهم.

وقد تضمّنت الآية أصولًا جامعة، منها:

الأصل الأول: بيان المقصودين بالخطاب: قال جمهور المفسرين إن الخطاب خاصّ بأهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾، قال الإمام الطبريّ: "يعني علماءَ اليهود وأحبارَها، وعلماءَ النصارى، لكتمانهم الناسَ أمرَ محمد صلى الله عليه وسلم، وتركهم اتباعه وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل. و"البينات" التي أنزلها الله: ما بيّن من أمر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وصفته، في الكتابين اللذين أخبر الله تعالى ذكره أنّ أهلهما يجدون صفته فيهما. ويعني تعالى ذكره ب"الهدى" ما أوضح لَهم

[30] والأسماء الموصولة تشبه أسماء الشرط في العموم والإبهام وترتُّب ما بعدها عليها، إذا كانت صلة الموصول دالّة على التعليل، والفعل المضارع إذا كان صلة للموصول يكون أبيَن من الماضي في إرادة التعليل..

من أمره في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم"[31]، ولا شك في أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى داخلون أصالة في هذا الخطاب، ولكن أسلوب التعليل يشمل غيرهم، قال العلّامة الرازيّ "إنه كلام مستأنف يتناول كلَّ من كتم شيئًا من الدين، لوجوه أحدها: أن اللفظ عامّ، والعارض الموجود وهو نزوله عند سبب معين لا يقتضي الخصوص على ما ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وثانيها: أنه ثبت أيضًا في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم، لا سيما إذا كان الوصف مناسبًا للحكم، ولا شك أن كتمان الدين يناسبه استحقاق اللعن من الله تعالى، وإذا كان هذا الوصف علة لهذا الحكم، وجب عموم هذا الحكم عند عموم الوصف"[32]. فإرادة العموم أظهر، ومن فعل من أبناء المسلمين هذا الفعل، فهو داخل في هذه الفئة الخبيثة، وكتمان البينات والهدى بعد تمام النعمة وإكمال الدين أشدّ قبحًا! والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد استدلّ أبو هريرة رضي الله عنه بالآيتين قائلًا: "إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا ثُمَّ يَتْلُو ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾، إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ

[31] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 249

[32] انظر: الرازيّ، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج4/ 140

كَـانَ يَلْـزَمُ رَسُـولَ اللهِ صـلى الله عليـه وسـلم بِشِـبَعِ بَطْنِـهِ وَيَحْضُـرُ مَـا لاَ يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ"[33].

ولما كان خطاب الله تعالى للمؤمنين عامرًا بالتكريم، والرفق، والامتنان، وكانت المصائب في الدين مذمومة، وذكرها ممّا يُزري ويُخزي، فقد عدل السياقُ عن مجابهة المؤمنين ومخاطبتهم بما يُشمت بهم الأعداء، فساق الله تعالى إلينا هذا البيان مساقًا جميلًا مشحونًا بالعبرة والتحذير، حتى إن القارئ حين يقرأ هذه الآية لينصرف ذهنه إلى أهل الكتاب وحدهم؛ لأنهم آخر من وصف بهذه الخسيسة في هذا السياق. فأورد الله الخطاب موردًا يتوافق مع السياق ومع الواقع الذي أُنزلت فيه الآيات، فقد كانت أمّة الاستجابة (المؤمنون) حين نزول هذه الآيات معافاة، صحيحة الدين، بريئة من موبقات الأمم الناكثة، وكانت أمّة الدعوة من أهل الكتاب قد كتم علماؤها، وبدّلوا، فأورد الله تعالى خطابه عامًّا مُبهمًا، فجمع الكاتمين الآثمين جميعًا في طيّ الاسم الموصول وصلته: "الَّذِينَ يَكْتُمُونَ"، وقد وردت صلة الاسم الموصول بصيغة الفعل المضارع الدالّ على التجدّد والامتداد، ليستغرق كلَّ الجُناة من أهل الكتاب وممّن كان على شاكلتهم في كلّ عصر.

ويدخل في هذا العموم طوائف من أبناء المسلمين الذين كتموا ما يجب عليهم بيانُه، وسكتوا عمّا يجب عليهم قوله وتبليغه بلا عذر، وشرّ من هؤلاء قومٌ بدّلوا شرعة الله تعالى، وأحلّوا قومهم دار البوار، فضاعت

[33] رواه البخاريّ ح118

طاقاتهم وأوقاتهم في نشر الفتن، وتحريف الدين، ومحاربة منهاج النبوّة، فتراهم يتخبّطون هم ومن تبعهم في الظلمات، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ويأخذ من هذا الشرّ بطرف كلُّ من خاض في الفتاوي وتصدر لبيان ما لا يحسنه من أمور الدين، فتراهم يعيثون فسادًا في أدلة الشرع، يأخذون من النصوص ما يشتهون، وينكرون منها ما هو ثابت معلوم، فضلّوا وأضلُّوا بحجّة حريّة الفكر، والاجتهاد، وبعضهم يفعل ذلك اتباعًا للدليل بزعمه ووهمه، وأداء لواجب البيان، واتقاء للعنة الكتمان، فتركوا ما يجب عليهم فعله، وشغلوا أنفسهم بما لا يجوز لهم الخوض فيه. ومصيبة الجهل المركّب تحرم صاحبها من التوبة. عَنْ عُرْوَةَ قَالَ حَجَّ عَلَيْنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْزِعُ الْعِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاهُمُوهُ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ فَيَبْقَى نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ فَحَدَّثْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو حَجَّ بَعْدُ فَقَالَتْ يَا ابْنَ أُخْتِي انْطَلِقْ إِلَى عَبْدِ اللهِ فَاسْتَثْبِتْ لِي مِنْهُ الَّذِي حَدَّثْتَنِي عَنْهُ فَجِئْتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَحَدَّثَنِي بِهِ كَنَحْوِ مَا حَدَّثَنِي، فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَأَخْبَرْتُهَا، فَعَجِبَتْ! فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ حَفِظَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو"[34].

[34] رواه البخاريّ ح7307، ومسلم ح4829، واللفظ للبخاريّ.

الأصل الثاني: حقيقة الكتمان المذموم: المقصود بالكتمان في قول الله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى".

الكتمان لغة: خلاف الإعلان، وهو إخفاء المعاني في النفس، أو السكوت عن بيان المعنى، والمكتوم يختصّ بالمعاني كالأسرار والأخبار؛ لان الكتمان لا يستعمل إلا فيهما[35]. والكتمان المذموم شرعًا هو حجب البيّنات والهدى عن الناس ومنع وصولها إليهم، مع حاجة الناس إليها، "فلما كان ما أنزله الله تعالى من البينات والهدى من أشدّ ما يحتاج إليه في الدين، وصف من علمه، ولم يظهره بالكتمان"[36].

صور الكتمان: للكتمان صور كثيرة، نذكر منها:

الأولى: كتمانُ العلماء والدعاة أنفسِهم ما أمروا ببيانه، وإمساكُهم عن الجهر بالحقّ مع وجود الحاجة إليه، وسكوتُهم عن الباطل، وهذه الصورة من أسوأ صور الكتمان؛ لأن الذين كتموا هم الذين حُمِّلوا أمانة البيان! فأعظم الناس خيانةً اضيعهم لأكبر أمانة، وهي أمانة بيان البيّنات والهدى والعلم، وذلك بكتمانها وحجبها عن أهلها بلا عذر معتبر.

الثانية: منع حملة الهدى والبيّنات من الصدع بالحقّ ترغيبًا في المال والجاه أو ترهيبًا، أو بالإبعاد عن منابر الإفتاء، والتعليم، والدعوة، وبتنصيب الجهّال في تلك المناصب. وقد بلغ الأمر بالكاتمين الظالمين

---

[35] انظر: العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1، 1412هـ، ج1/ 448

[36] انظر: الرازيّ، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج4/139-140

إلقاء الدعاة في السجون، والتهجير القسريّ، وفرض الإقامة الجبريّة، والمنع من البيان على وسائل الإعلام، والقتل.

الثالثة: شَغْل حَمَلةِ الحقّ عن بيان الحقّ بصرفهم إلى معارك ضررها أكثر من نفعها كاختلاق النزاعات، وإيقاد نار الخلافات القديمة، ودعم من يخوض فيها، والتحريش بين الدعاة وإشغال بعضهم ببعض؛ حتى لا يجدوا وقتًا لبيان الحقّ.

الرابعة: إخفاء البيّنات والهدى وحجبها عن الناس، وطمس مواطن وجودها في التوراة والزبور والإنجيل كما يفعل أحبار اليهود ورهبان النصارى وقساوستهم، وتحريفها في ترجماتهم للقرآن الكريم والكتب التي تشرح وتفسرّ ما أنزله الله تعالى من الهدى ودين الحقّ. وكتغييب العلوم الشرعيّة؛ حتى أضحت كثير من كتب العلوم الشرعيّة ممنوعة، بحذفها من المقرّرات أو منع تداولها، أو موؤودة في المكتبات المهجورة والمخازن المهملة.

الخامس: الترويج لأفكار المبطلين والجاهلين ونشر أقوالهم؛ لتحلّ محلّ الحقّ، ومحاربة التعليم الدينيّ القويم والاكتفاء بالمناهج والمدارس المفرطة، أو الاستعاضة عن العلوم الإسلاميّة بفنون أخرى.

الأصل الثالث: المكتوم: قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ"، فالمكتوم هو ما دلّ عليه الاسم الموصول وصلته "مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى".

فالبيّنات: هي الحجج الواضحات كالدلائل الواردة في الكتب السابقة على نبوّة محمّد عليه الصلاة والسلام.

والهدى: هو كلّ ما يهدي إلى جلب الخير، ودفع الضرّ، والشرّ، من الأحكام والأخبار، فهذه الآية تدلّ على أن ما يحتاج إليه المكلفون من علوم الدين يجب بيانه، ولا يجوز كتمانه كالشرائع والآداب الإسلاميّة، قال العلّامة القرطبيّ: "يعمّ المنصوص عليه والمستنبط، لشمول اسم الهدى للجميع. وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد، لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله"[37]، وقال العلّامة الرازيّ: "فثبت أنه تعالى توعّد على كتمان الدلائل السمعية والعقلية، وجمع بين الأمرين في الوعيد، فهذه الآية تدلّ على أن من أمكنه بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجًا إليها ثم تركها أو كتم شيئاً من أحكام الشرع مع شدة الحاجة إليه فقد لحقه الوعيد العظيم"[38]. وقال العلّامة السعديّ: "الْبَيِّنَاتِ: الدالّات على الحقّ المظهرات له، وَالْهُدَى: هو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبيّن به طريق أهل النعيم، من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل

[37] القرطبيّ، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط2، 1384هـ - 1964 م، ج185/2

[38] انظر: الرازيّ، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج140/4

العلم، بأن يبينوا للناس ما منّ الله به عليهم من علم الكتاب، ولا يكتموه"[39]. والكتاب يشمل التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن.

وبهذا نعلم أن أنواع المكتومات كثيرة جدّا، ويدخل في عموم ذلك ما ورد في الكتب المنزّلة من عند الله تعالى ومنها القرآن الكريم ممّا يتعلّق بصدق الرسالة الخاتمة وصفات الرسول محمّد عليه الصلاة والسلام، وما يتعلّق بحقيقة العلماء الوارثين وحقوقهم، وما يتعلّق بالضالّين والمضلّين والمبطلين وعقوقهم.

قصّة وعبرة:

عَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "بَلَغَ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلاَمٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ، قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ

[39] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 1420هـ -2000 م، ج77/1

اللهِ، ثُمَّ قَـالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُـودَ قَـوْمٌ بُهُـتٌ، إِنْ عَلِمُـوا بِإِسْـلاَمِي قَبْـلَ أَنْ تَسْـأَلَهُمْ، بَهَتُـونِي عِنْـدَكَ، فَجَـاءَتِ الْيَهُـودُ، وَدَخَـلَ عَبْـدُ اللهِ الْبَيْـتَ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ صـلى الله عليـه وسـلم: أَيُّ رَجُـلٍ فِـيكُمْ عَبْـدُ اللهِ بْـنُ سَـلاَمٍ؟ قَـالُوا أَعْلَمُنَـا، وَابْـنُ أَعْلَمِنَـا وَأَخْيَـرُنَا، وَابْـنُ أَخْـيَرِنَا، فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ صـلى الله عليـه وسـلم: أَفَـرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْـلَمَ عَبْـدُ اللهِ؟ قَـالُوا: أَعَـاذَهُ اللَّهُ مِـنْ ذَلِـكَ، فَخَـرَجَ عَبْـدُ اللهِ إِلَـيْهِمْ، فَقَـالَ: أَشْـهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللهِ، فَقَـالُوا: شَـرُّنَا، وَابْـنُ شَـرِّنَا وَوَقَعُـوا فِيـهِ"[40]. تبـيّن هـذه القصّـة مبلـغ اليهـود في كتمـان الحـقّ إذا تعلّـق ببيـان صـدق الرسـالة الخاتمـة، وصـدق رسـولنا عليـه الصـلاة والسـلام، وقـد حـذرنا الرسـول مـن اتبـاع سـننهم، وقـد كشـفت الأيام صـورًا لـبعض فجـار المسـلمين ممّـن علمـوا الهدى، فكتموا كما فعل بعض أهل الكتاب.

وأما ما كـان ضـررُ بيانـه وبثّـه أكـبر مـن نفعـه، فيجـوز كتمـه، فعَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ قَـالَ: "حَفِظْـتُ مِـنْ رَسُـولِ اللهِ صـلى الله عليـه وسـلم وِعَـاءَيْنِ فَأَمَّـا أَحَـدُهُمَا فَبَثَثْتُـهُ، وَأَمَّـا الآخَـرُ فَلَـوْ بَثَثْتُـهُ قُطِـعَ هَـذَا الْبُلْعُـومُ"[41]. قـال العلَّامـة ابـن حجـر: "وحمـل العلمـاء الوعـاء الـذي لم يبثـه علـى الأحاديـث الـتي فيهـا تبيين أسامي أمراء السوء واحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضـه، ولا يصـرح بـه خوفًـا علـى نفسـه مـنهم كقولـه أعـوذ بالله مـن رأس

[40] رواه البخاريّ ح3329

[41] رواه البخاريّ ح120

الستين وإمارة الصبيان يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة"[42].

الأصل الرابع: أثر كتمان الحقّ في حياة الناس:

إن أزمة كتمان الحقّ، ولَبسِه بالباطل قد استشرت، ولا يخفى على عاقل مقدار ما يفوت الناس من الخير، وما يحلّ بهم من الفساد والضنك بسبب مخالفتهم هدى الله تعالى ودين الحقّ.

ولو أن أحدنا طاف في بلاد الإسلام؛ ليرى أيّ مبلغ بلغ بنا كتمان البيّنات والهدى (ميراث النبوّة)؟ وكيف يحرَّف فيها الكلم عن مواضعه؟ وكيف غُيِّب العلماء الصادقون أو أُبعدوا، وكيف اتخذ الناسُ الرؤوسَ الجهالَ أئمّةً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فأوردوا الناس المهالك، ترى بمَ يرجع إلينا مثل هذا الرحّالة؟ أبما يسرّ ويؤنس أم بما يوحش ويحزن؟

أقول: بل يكفي أن يتتبّع فريق من الباحثين القنوات الفضائيّة الرسميّة وغير الرسميّة لعدّة أيام، ثمّ انظر بمَ يرجع الباحثون؟

لقد وقف دعاة السوء حاجزًا يحول بين الناس وبين الحقّ. وإذا حلّت مصيبة كتمان البيّنات والهدى بقوم فقد تودّع منهم.

وكثيرًا ما يصحبُ كتمانَ الحقّ نشرُ الأهواء، وعلى قدر هذا الكتمان والنشر يكون الفساد في الأرض، والعقاب من السماء. وكلما كثُر الكاتمون الحقَّ، وزادت الأهواء انحطّت الأمّة وضعُفت، وتمزّقت

[42] ابن حجر، أحمد العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ، دار المعرفة – بيروت، 1379، ج1/ 216-217 بتصرف يسير

أواصرها، وتفرّقت كلمتها، وبسط إليها أعداؤها أيديهم وألسنتهم بالسوء، فسلبوها ثرواتها، وهتكوا حرماتها، وعاثوا فيها فسادًا.

ولا يزال أهل الكتاب والمنافقون والكفار يكيدون كيدًا عظيمًا للإسلام تنطق بذلك التقارير السريّة والمعلنة للمنظمات والمؤسسات الدوليّة الغربيّة والشرقيّة، وآثار الحرب على الإسلام شاخصة في مشارق الأرض ومغاربها: أشلاء تمزّق، ونفوس تزهق، وأعراض تنتهك، ودول تغزى، وشعوب تحرق، ومناهج تطوى، ودعاة يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وآخرون يساقون إلى السجون، ومنهم من يخرج من دياره، فلا يجد له مأوى.

قصّة وعبرة:

فعَنْ عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتِ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"[43]. وعن جَابِرٍ قَالَ خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ،

[43] رواه البخاريّ ح4340 ومسلم، ح4872، واللفظ للبخاريّ.

فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ: فَقَالَ هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ، فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: "قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلاَّ سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ"[44].

الأصل الخامس: جزاء الكاتمين الآثمين: اللعن، قال الله تعالى "أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ". واللعن في اللغة: هو الطرد والإبعاد من الخير، وإذا صدر اللعن من العباد فهو السَّبُّ والدُّعاءُ[45]، قال الإمام الطبريّ: "واللعنة: الفَعْلة، من لعنه الله بمعنى أقصاه، وأبعده، وأسْحَقه. وأصل اللعن: الطرْد، فمعنى الآية إذًا: أولئك يُبعدهم الله منه ومن رحمته، ويسألُ ربَّهم اللاعنون أنْ يلعنَهم؛ لأن لعنةَ بني آدم وسائر خَلق الله مَا لَعنوا أن يقولوا: "اللهم العنه"؛ إذْ كان معنى "اللعن" هو ما وصفنا من الإقصاء والإبعاد، وأما "اللاعنون"، فأولى الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: "اللاعنون"، الملائكةُ والمؤمنون"[46].

أقول: لقد استُعمِل لفظ "اللاعنون" وهو اسم فاعل محلّى ب"أل" يعمّ كلّ لاعنٍ، وفي هذا اللفظ تعميم وإبهام يناسب السياق! وقد اختلف المفسرون في بيان هذا اللفظ، قال الشنقيطي: "لم يبيّن هنا ما اللاعنون؟

---

[44] رواه أبو داوود، ح 336، وقال الشيخ الألباني في صحيح الجامع: (صحيح) ح 4362

[45] انظر: الزَّبيدي، محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بلا تاريخ ج 36/ 118، وابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: خير، دار صادر – بيروت، ط1، ج 13/ 387

[46] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج3/ 254-257 بتصرّف يسير.

ولكنه أشار إلى ذلك في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[47]"[48]، وعلى هذا الرأي يكون الملائكةُ والناس أجمعون هم المقصودين بلفظ اللّاعنين، وهذا المسلك الأصوليّ واضح، ولكنّ الإمام الطبريّ رجّح أنهم الملائكة والمؤمنون من الناس في هذا الموضع، مع أنه استدلّ بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[49]، لما كان هذا اللعن في الدنيا، فلعلّه رأى أن اللعن المؤثّر المعتبر في هذا الموضع (لعن الذين يكتمون ما أنزل الله) هو ما كان دعاء مضرًّا بالملعون، وهو لعن اللاعنين من الملائكة والمؤمنين، ولذا قال العلّامة الرازيّ: "فيجب أن يحمل على مَنْ للعنه تأثير، وقد اتفقوا على أن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك فهم داخلون تحت هذا العموم لا محالة"[50].

وقد بدت لي فائدة –وأنا أفسّر هذه الآية– ألخصّها في أمرين:

الأمر الأول: أن هذه الآية وردت بصيغة الجملة الفعلية الدالّة على الحدوث، والحدوث أخفّ من الثبوت واللزوم الذي تدلّ عليه الجمل الاسميّة، وقد استعمل الفعل المضارع "يلعن" وهو دالّ على حدوث اللعن وتجّدده لمن يتجدّد منهم كتمان البيّنات والهدى، وأتى باسم الفاعل وهو دالٌّ أيضًا على حدوث اللعن، عامٌّ يشمل كلّ لاعنٍ، فالآية دالّة على حدوث اللعن لا على حلول اللعنة وثبوتها ولزومها

---

[47] سورة البقرة آية (161)

[48] الشنقيطي، الأضواء، مرجع سابق، ج47/1

[49] سورة البقرة آية (161)

[50] انظر: الرازيّ، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج141/4

للملعونين، فجاءت العبارة متوافقة مع مقاصد الآية؛ لأن من مقاصد هذه الآية التخويف والترهيب لا الإقعاد والإبعاد والتيئيس؛ ليَفزع الكاتمون إلى باب التوبة الذي لا يزال مفتوحًا للتائبين؛ ليتوبوا ويصلحوا ويبيّنوا. وأمّا المصرّون على الكتمان، فيأخذهم السياق صَعودًا إلى مزيد تهديد ووعيد.

الأمر الثاني: أن إبهام اللاعنين وتعميمه أبلغ في إثارة النفوس؛ لتبحث عن الحكمة، ولتتبّع الآيات الأخرى لتكتشف وجوه البيان لما أُبهِمَ، وهذا أسلوب بديع للربط بين الآيات المتفقة في معنى من المعاني، وبناء منظومات متناسقة ذات وحدة موضوعيّة، فإذا بحثت عن بيان ما أُبْهِمَ في الآية السابقة كلفظ "اللاعنون"، فإنك تجده بيّنًا ظاهرًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[51]، وتجد معاني أخرى مكمِّلة ومؤسّسة، ففي قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ" بيان عقوبة الذين كفروا وماتوا وهم كفّار، والموت واعظ عظيم، وفي هذا تحذير وتخويف للمصرّين على الكتمان ولغيرهم، فإذا نزل الموت انقطعت عروة التوبة، وثبتت عقوبة اللعن، ولذا وردت العقوبة في هذه الآية بصيغة الجملة الاسميّة الدالّة على حلول اللعنة وثبوتها ولزومها للملعونين، وأتى باللعنة المضافة إلى المعرفة للدلالة على العموم، وصرّح باللاعنين: الله والملائكة والناس، وأكّد العموم بلفظ أجمعين، وهذا الأسلوب أشدّ تخويفًا وترهيبًا لمن يُصِرّ على الكفر والكتمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا

[51] سورة البقرة آية (161)

يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[52]. وقد دلت الآية الأخيرة على تيئيس الكفّار من النجاة من النار. إنهم خالدون في اللعنة والعذاب فلا تخفيف ولا إنظار، نعوذ بالله تعالى من حال أهل النار.

[52] سورة البقرة آية (161-162)

المطلب الثاني: المخرج من مصيبة الكتمان، "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ".

حين أنظر في معاني الآيتين المجيدتين تنبعث في ذاكرتي أممٌ كثيرة جماعاتٍ ووُحْدانًا ممّن آتاهم الله تعالى العلم، والدعوة، وممّن حملوا لواء الكلمة من السابقين واللاحقين فكتموا وظَلَموا، وهنا يجد الداعية نفسه في وسط القوم فزعًا رافعًا يديه اللهمّ سلم سلم، فتنهال عليه تلك المواقف التي وقفها خطيبًا، أو محاضرًا، أو محاورًا، وحين كتب ما كتب! لقد كتمتُ، وسكتُ، فينادي ربّه: "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، ثمّ يأخذ شريط الذكريات طريقه حاملًا تلك الجموع، وهو معهم، فيشقّ حجاب المستقبل، وإذا بتلك الصفوف الطويلة تساق إلى عرصات محكمة الفصل، وقد امتدت تلك الصفوف عن اليمين وعن الشمال مهطعين إلى الداعي بقلوب واجفة، وأبصار خاشعة، لا يدري أحدهم أيؤخذ به ذات اليمين، فيسعد ويرقى، أم يؤخذ به ذات الشمال فيهوي، ويشقى؛ حتى إذا بلغت الصفوفُ المفترقَ، سيق الذين كتموا البينات والهدى ذات الشمال، فغُلّت أيديهم، وغشيهم الخزي، واسودّت وجوههم، فيُوقفون، ويسألون، فيقال لبعضهم: لقد كتمتم حسدًا، ويقال لآخرين كتمتم؛ ليقال، وقد قيل، ويقال: كتمتم حميّة، وكتمتم للجاه، وكتمتم للمال، ويتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا، فيُؤخَذُ كلٌّ بذنبه، فيُلجم بلجام من نار ملعونًا مقبوحًا، وقضي بينهم بالحقّ! حتى إذا بلغ الكرب منتهاه، بادرت آية

التوبة برفع حجابها، وفتح أبوابها؛ ليدخلها الذين تابوا، وأصلحوا، وبيّنوا بسلام آمنين، فيسلك بهم ذات اليمين، وتتلقاهم الوفود بالتسليم والتكريم، وهكذا تبدو خاتمة هذا المشهد في قلب التائب عند تلاوة آية التوبة بعد آية الوعيد. لقد استقبلتنا آية التوبة بأداة الاستثناء وبسطتها صراطًا؛ ليعبر عليه التائبون إلى جنّات ونهر، ويأووا إلى كنف التوّاب الرحيم.

فقد استثنى من كان آتيًا بهذه الأشياء الثلاثة: التوبة: وهي ترك معصية (الكتمان) والدخول في الطاعة (البيان) ابتغاء مرضاة الله تعالى، والإصلاح: وهو إزالة ما خلَّفه الكتمانُ من الفساد، فلا يُبقي له أثرًا ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، والبيان: وهو الإفصاح وإعلان الحقّ، وقد اشتملت الآية على ما هو عامّ، وهو التوبة، وما هو خاصّ، وهو الإصلاح، وما هو أخصّ، وهو البيان، وعطف الخاصّ على العامّ للمبالغة في العناية والاهتمام. وقد تضمّنت الآية خمسة أصول:

الأصل الأول: التوبة جنّة: قال الله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا"، أي: رجعوا إلى طاعة الله تعالى، والتوبة هي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى بترك الذنوب وفعل الطاعة، فهي تخلية: بترك الذنب، وتحلية بفعل الطاعة. قال العلّامة ابن القيّم: "كثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على ألّا يعاود الذنب وبالإقلاع عنه في الحال وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدميّ: فلا بدّ من أمر رابع، وهو التحلل منه، وهذا الذي ذكروه بعض مسمّى التوبة بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله

كما تتضمن ذلك تتضمّن العزم على فعل المأمور، والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا؛ حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، هذه حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمّنت الأمرين، وهي كلفظة التقوى التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضى عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور، فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحبّ، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علّق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[53]. فكلّ تائب مفلح ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه"[54].

والتوبة ليست بنار تسوق القلوب إلى عرصات الطاعات، فتحرقها، وتحرمها ذوق اللذات، كلّا، بل هي جنّة يطيب فيها العيش، وتحلو فيها الحياة؛ لأنها تكشف الحجاب عن البصيرة؛ لترى من الأسرار المبثوثة في أقدار الله تعالى الشرعيّة والكونيّة، ولتبصر من جمال الكون ما يؤنس المستوحش، ويجلو اليأس والبؤس عن القلوب، فهي باب من أعظم الأبواب التي تتدفق منها رحمة الله تعالى وولايته، وشأنها عند الله تعالى

[53] سورة الأعراف آية (163)

[54] ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط2، 1973 ج1/ 305-306

عظيم، فقد جعلها الله تعالى علاجًا لكلّ مصيبة في الدين. وسوف أذكر حديثًا يبيّن فيه رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلة التوبة عند الله تعالى، وكيف يستقبل الله تعالى عباده التائبين، وقد بيّن لنا رسول الله هذا الأمر بيانًا لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله إلا بالوحي؛ لأنه من علم الغيب الخاصّ بنفس الله تعالى، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[55]، فانظر هذا تكريم وهذه الحفاوة التي يتلقّى بها الله العليّ العظيم القويّ العزيز القهّار هذا المذنب المفرّط الضعيف الذليل حين يأتي ربَّه تائبًا! فسبحن الله التوّاب الرحيم، ما أرحمه وأكرمه! فعن عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ؛ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ"[56]. وما كان الله تعالى ليفرح بقدومك عليه تائبًا، ثمّ يذرَك في معترك المصائب وحيدًا مخذولًا، وما أظنّ أحدًا يسمع بهذا الحديث ثمّ يعرض عن التوبة مُؤْثِرًا صحبةَ الذنوب؟ اللهم إني أتوب إليك من كلّ ذنب ظاهر وباطن، فاغفر لي ولوالديّ ولجميع المسلمين.

---

[55] سورة النور آية (31)

[56] رواه البخاريّ ح6308، ومسلم ح4929 واللفظ لمسلم.

والذنوب نوعان:

النوع الأول من الذنوب: فعل ما نهى الله عنه من المحرّمات: كقتل النفس التي حرّم الله تعالى، والزنا، وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل (وهذه الأفعال من السيئات والقبائح)، وهذه الذنوب منها ما يكون بين العبد وربّه، وليس فيها عدوان على حقوق العباد، فالتوبة من هذه الذنوب تكون بترك فعلها ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأما ما فيها عدوان على حقوق العباد (على أنفسهم، أو أعراضهم، أو أموالهم)، فالتوبة من هذا النوع لا تتمّ إلا بأمرين: بتركها، وردّ الحقّ إلى أهله ابتغاء مرضاة الله تعالى.

والنوع الثاني من الذنوب: تركُ العبدِ ما أمره الله تعالى بفعله من الواجبات: كترك الصلاة، والصيام، والزكاة أي: ترك الحسنات والطاعات الواجبة. والتوبة من هذا الصنف من الذنوب تكون بفعل تلك الطاعات ابتغاء مرضاة الله تعالى. وعليه، فالذنب الذي اقترفه الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى هو من هذا النوع أي: من ترك الواجبات، وقد شرط لاستثنائهم من اللعنة ثلاثة شروط: التوبة إلى الله تعالى، وإصلاح ما أفسدوا، وبيان ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى.

الأصل الثاني: الإصلاح: قال الله تعالى: "وَأَصْلَحُوا" والإصلاح هو إزالة الفساد، وبهذا بعلم أن كتمان ما أنزل الله تعالى من البيّنات والهدى هو إفساد ونشرٌ للفساد؛ لأنه يفضي إلى حجب العلم النافع عن

الناس، فيضلّ الناس عن سواء السبيل، فالواجب على من أفسد شيئًا أو تسبّب في إفساده أن يصلحه، وذلك بتتبع الأثار التي خلّفها سلوكه الآثم؛ ليزيلها بقدر الاستطاعة. فالتوبة خروج من الفساد، ورجوع إلى الصلاح، وقد يفهم المفرّط أن هذا كافٍ في التوبة من الذنوب التي يتعدّى فسادُها فاعلَها، لذلك كان التصريح بذكر الإصلاح أنفع، ولقد رأينا أناسًا تابوا من الإلحاد، والكفر، ولكنهم تحوّلوا إلى مسلمين منعزلين مشغولين ببعض العبادات الفرديّة، فأعرضوا عن مدافعة الباطل الذي كانوا ينصرونه، فلم يفنّدوا ما كانوا ينشرونه من الفتن، والشبهات، والدسائس، واكتفوا بهجره، ولم ينصروا الحقّ وأهله، بل إن فريقًا من هؤلاء انقلبوا مفسدين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فأبوا أن يتفقهوا في الدين، وعبدوا الله تعالى على جهل مركّب، وصوّروا الإسلام تصويرًا مشوّهًا.

الأصل الثالث: البيان: قال الله تعالى: "وَبَيَّنُوا" أي بلّغوا وأعلنوا ما وقعوا في كتمانه ممّا أمروا ببيانه؛ لينتفع ببيانهم الناس، وليكونوا أسوة حسنة لغيرهم بعد أن كانوا أسوة سيئة؛ لأن بيان الهدى والتحلّي به يزيل عنهم أثر ما تلبّسوا به من صفة الكتمان، ولما كان سبب اللعنة هو الكتمان، جعل الله تعالى المخرج منها القيام بالبيان تصريحًا، وقد رأينا بعض من كان قويًّا جلدًا جبّارًا في بثّ سموم الجاهليّة، وكتمان الحقّ، فلمّا تابوا إلى رشدهم، وظهر لهم بطلان ما كانوا عليه، أقبلوا على الدين على استحياء من أصدقاء الأمس، فأرادوا التوفيق بين النقيضين،

فلا انفكّوا من ربقة الجاهليّة، ولا أخذوا الكتاب بقوّة، فصمتوا حيث يجب البيان، وتكلّموا فيما ضرُّه أكبر من نفعه. ورأينا نماذج رائدة في الصدع بالحقّ، وكشف المؤامرات على الإسلام، وردّ كيد الكافرين من أقوامهم الغربيّين أو الشرقيّين، ومن هؤلاء المفكّر محمّد أسد رحمه الله تعالى (أصله من اليهود)، والشيخ يوسف إستس حفظه الله ورعاه (كان قسيسًا).

تنبيه:

ينبغي للتائب ألّا يحمل من التكاليف إلا ما يطيق إصلاحه وبيانه، وألّا يتصدّى لما لا يطيق، ولا يتعدّى؛ لأن الله رفيق يحبّ الرفق. وأما إذا عجز العبد عن الوفاء بالإصلاح والبيان بعذرٍ قاطع، كأن يدهمه الموت قبل تمكُّنه من الإصلاح والبيان، فهو معذور مأجور، ما دامت النيّة تامّة.

الأصل الرابع: الجزاء بيّنت الآية الجزاء بأمرين:

الأول: الإخراج من لعنة الله تعالى ولعن اللاعنين بالاستثناء في قوله تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا..." وهذا فضلٌ عظيم يزحزح صاحبه عن نار اللعنة.

الثاني: "فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ". "فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ" قال ابن عاشور: "جملة مستأنفة، وقرنت الجملة بالفاء للدلالة

على شيء زائد على مفاد الاستثناء، وهو أن توبتهم يعقبها رضى الله عنهم. فجاء في الآية نظم تقديره إلا الذين تابوا انقطعت عنهم اللعنة، فأتوب عليهم. أي أرضى"[57]. والذي يظهر من هذه الجملة هو التصريح بالتوبة عليهم، وقد وردت بصيغة الفعل المضارع الدالّ على تجدّد التوبة لهم، وعدم انقطاعها وهذه بشارة من أعظم البشارات، ومن تاب الله تعالى عليه، غفر ذنبه، وألحقه بالصالحين، ومِنَ التائبين مَنْ يبدّل الله سيئاتهم حسنات، وقد وردت السُّنة ببيان قبول التوبة المتكرّرة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا – فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ – فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ – آخَرَ، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا– قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ أَذْنَبْتُ – آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي – ثَلاَثًا – فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"[58].

الأصل الرابع الخامس: الثناء والتطمين. "وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، في هذين الاسمين الكريمين ثناء على الله تعالى، وتطمين لقلوب العباد، فإن الذنوب مهما عظمت، فإنّ الله تعالى أعظم رحمة وتوبة، فالله تعالى

[57] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج72/2

[58] رواه البخاريّ ح7507.

يتوب على العباد؛ لأنّه هو التوابّ الرحيم، وقد بيّن العلّامة ابن القيّم ما تقتضيه أسماء الله الحسنى من الآثار أحسن بيان، فقال: إنها "تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامّة لمسبباتها، فاسم السميع البصير يقتضي مسموعًا ومُبْصَرًا. واسم الرزاق يقتضي مرزوقًا، واسم الرحيم يقتضي مرحومًا، وكذلك اسم الغفور، والعفو، والتواب، والحليم، يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات؛ إذ هي أسماء حسنى، وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة، وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[59]، فإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم فلمن يغفر؟ وعمّن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟"[60].

ومن رحمته أنّه وسّع باب التوبة، وتركه مفتوحًا للعبد؛ حتى يأتيه اليقين (الموت)، فعن ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر"[61]، والغرغرة تكون عند قبض الروح وبلوغها الحلقوم، فيصدر عند ذلك صوت الغرغرة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[62]، فإذا أتى اليقين انقطع العمل، وأغلق باب التوبة، فمن تاب قبل أن يُغرغر، وقبل طلوع الشمس من مغربها، تاب الله عليه، فإذا

---

[59] رواه مسلم، ح4936

[60] ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مرجع سابق، ج1/ 208

[61] رواه الترمذيّ، ح3537، وحسنه الألباني.

[62] سورة الحجر آية (99)

غرغـر العبـد، أو طلعـت الشـمس مـن مغربهـا، فـلا توبـة، فعَـنْ أَبِي مُوسَـى عَـنْ النَّـبِيِّ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَـزَّ وَجَـلَّ يَبْسُـطُ يَـدَهُ بِاللَّيْـلِ لِيَتُـوبَ مُسِـيءُ النَّهَـارِ وَيَبْسُـطُ يَـدَهُ بِالنَّهَـارِ لِيَتُـوبَ مُسِـيءُ اللَّيْـلِ حَـتَّى تَطْلُـعَ الشَّـمْسُ مِـنْ مَغْرِبِهَـا"[63]، وعـن أَبُي هُرَيْـرَةَ، رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ صـلى الله عليـه وسـلم: "لاَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ حَـتَّى تَطْلُـعَ الشَّـمْسُ مِـنْ مَغْرِبِهَـا، فَـإِذَا رَآهَـا النَّـاسُ آمَـنَ مَـنْ عَلَيْهَـا فَـذَاكَ حِـينَ لاَ يَنْفَـعُ نَفْسًـا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ"[64].

[63] رواه مسلم، ح4954

[64] رواه البخاريّ ح4635 ومسلم، ح413

المطلب الثالث: مقدمات وضوابط في معرفة المصيبة (تشخيصها) وعلاجها:

إن جلّ الحوادث التي تعصف بالأمّة هي من جنس المصائب في الدين، ولا مفرّ من مواجهتها بما شرع الله تعالى، وتطبيق النصّ على الواقع يكون بإنتاج حلولٍ مناسبة في ضوء النصّ لمعالجة المصائب، والمشكلات والأزمات الواقعة والمتوقّعة، وليس ذلك بالأمر اليسير، فكيف إذا كان النصّ ممّا يعالج مشكلات خاصّة وعامّة؟ إن تنزيل مثل ذلك النصّ يتطلّب حشد جهود كثيرة عظيمة والعملَ وفق مناهج علميّة رشيدة.

ولذا سأقتصر على ذكر مقدمات في بيان حقيقة المصيبة الواردة في الآية الأولى (مصيبة كتمان البيّنات والهدى)، وضوابط في علاج هذه المصيبة في واقعنا المعاصر.

مقدمات في بيان حقيقة المصيبة (كتمان البيّنات والهدى)

المقدّمة الأولى: يجب تحديد حقيقة المشكلة (المصيبة المنصوص عليها) كما وردت في النصّ من غير تهوين ولا تهويل، ولا إفراط ولا تفريط، وذلك هو الطريق الصحيح إلى الانتفاع بهداية الآية في واقعنا، وقد حاولت أن أبيّن ذلك في تفسيري للآية الأولى.

المقدّمة الثانية: يجب تعيين الصور المعاصرة المندرجة في جنس المصيبة المنصوص عليها (كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنه الله تعالى في الكتاب)؛ لأن ذلك ضروريّ لمعالجة المشكلات والمصائب

المتجدّدة المتعلّقة بكتمان البيّنات والهدى بالإنذار، والتحذير، والوقاية، والعلاج. وقد رأينا فريقًا عريضًا من المصابين بهذا الداء يجهلون جهلًا مركّبًا (مصابون بهذه المصيبة ويجهلون أنهم مصابون بها)، فهم يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنه الله تعالى في الكتاب، منهم من يكتم ذلك تقديمًا للعقل وتعطيلًا للنقل، فينفي ما دلّت عليه نصوص القرآن الكريم والسنّة الشريفة، ويثبت ما خالفهما، وقد وقع هذا في علم العقيدة بعد أن ترجمت كتب اليونان، وأما في هذا العصر، فقد عمت البلوى، فأصبح المستغربون والمستشرقون من أبناء جلدتنا ينادون بكلّ طامّة، فمنهم من ينادي بتغيير الشريعة، ومنهم من ينادي بتطويرها، ومنهم من ينادي بتنحيتها بالكليّة.

المقدّمة الثالثة: يجب الوقوف على ما حدّه الله تعالى من العقاب كما ورد في الآية، وما زاداه الشرع بيانًا في نصوص أخرى، فهو معتبر، فقد ذُكر في هذا النصّ نوعٌ من العقاب، وهو اللعن، وجاءت نصوص أخرى بعقوبات أخرى غير مختصّة بالكتمان بل عامّة، ولكن بعض صور الكتمان تدخل في دائرة تلك النصوص، كحدّ المرتدّ، فإن من كتمان الهدى ما يكون كفرًا وردّة، ومنه دون ذلك، فيستحقّ الكاتم المرتدّ أحكام الردّة بكتمانه.

ضوابط في علاج ظاهرة كتمان البيّنات والهدى في واقعنا المعاصر:

الضـــابط الأول: الجنـــوح إلى إنتـــاج العـــلاج المناســـب للمصـــائب والمشكلات الواقعة والمتوقّعة:

إن معالجـة ظـاهرة كتمـان مـا أنـزل الله مـن البيّنـات والهـدى مـن فـروض الكفايـة، ولا يتـأتى ذلـك إلا باسـتنفار المصـلحين الناصـحين مـن الرجـال والنسـاء؛ ليضـعوا الـبرامج المحكمـة؛ ليتمّـوا مـا هـو قـائم –ومـا أكثـر الخـير القـائم– ويسـتكملوا مسـيرة التمكـين لهـذا الـدين بتقـديم البيـان الأوفى في جميـع المجـالات التنمويّـة؛ لنحسـن توظيـف الطاقـات في مشـرع الأمّـة العظيم: إقامة الدين.

إن أمنيّـة الداعيـة الصـادق أن يمكّنـه الله تعـالى مـن النفـاذ بالبيّنـات والهـدى إلى قلـوب العبـاد؛ لينيرهـا بنـور الهدايـة، وإن مـن الـدعاة مـن هـو باخـعٌ نفسَـه أَسَـفًا علـى تلـك القلـوب المقفـرة مـن ذكـر الله تعـالى، يـودّ أحـدهم لـو أن الله تعـالى يكرمـه بغـرس شـجرة التوحيـد الطّيبـة فيهـا، لمـا يعلمـه مـن فضل الله العظيم، وحسن عاقبة الداعين والمدعوّين.

ولا ينطـوي علـى الحسـد وحـبّ كتمـان الحـقّ عـن الخلـق إلا قلـبٌ طُمسـت بصيرته، وفسدت سريرته، فكانت نار اللعنة أحقّ به!

ومـا أوسـع السـبل الـتي تهـدي إليهـا هاتـه الآيـة المجيـدة! فالواجـب أن نسـلك أحسـن تلـك المسـالك؛ لتحقيـق أحسـن الغـايات. وأقـول: إن ثمّـة مؤشـرات وصـفات للسـبيل الأمثـل، ومـن ذلـك: الاعتمـاد علـى سياسـة التـأليف،

والترغيب، والتبشير، والتيسير في الإصلاح، والبيان، وإنتاج الحلول، والابتعاد عن سياسة اختلاق الأزمات، وتكثير المشكلات، وإثارة الفتن، والمخاوف، والمنازعات. فالواجب فتح الأبواب، وتوسيع المسالك، ومن قال: هلك الناس، فهو الهالك.

الضابط الثاني: تفكيك المصائب والأخطاء والأخطار إلى أحجام قابلة للمعالجة:

لقد شَهِدْتُ في الثلاثين السنة الماضية حوادث جسامًا أضرّت بالأمّة المسلمة في جزيرة العرب وما حولها، وكان كتمان الهدى أشدّ الأسباب فتكًا، وقد أورثنا معيشة ضنكًا. وما يصيبنا بأسباب من عند أنفسنا كثير، وما منّا من أحد إلا له كِفلٌ من كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى، ومن التفريط في بيان الحقّ، ولكن مقلّ ومستكثر.

إننا بحاجة إلى بيان وافٍ للمقاصد المترتّبة على توحيد المشاريع الجامعة، وبيان أخطار التفرّق، والتنازع، والمناهج الباطنيّة، ومشاريع التبعيّة، والمناهج والبرامج الوافدة، وما تجرّه علينا البرامج الدوليّة والإقليميّة الغازية، فهي تعمل ليلَ نهارَ في جميع بلاد المسلمين؛ لإطفاء نور الله تعالى، وكتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى بكلّ وسائلهم الظاهرة والباطنة.

والمصائب الناشئة والسائدة عظام جسام، ولا يتأتى حلّها إلا بتفتيتها وتفكيكها، وتجزئتها إلى مفردات قابلة للمعالجة والحلّ، فمشاريع التوبة، والإصلاح، والبيان ينبغي أن تكون ميسورة مقدورًا عليها.

الضابط الثالث: تنظيم الأفراد ورصّ الصفوف العملاقة وبناء المؤسسات العابرة للقارّات من الوحدات الصغيرة المتناثرة:

كما أن المصائب والمشكلات الجسام تستوجب التفكيك والتفتيت، فكذلك الطاقات الكثيرة المبعثرة تستدعي حسن التنظيم واتباع سياسة التخصّص، والتخصّص وسيلة نافعة لإتقان توظيف الطاقات، وهو سمة من سمات العصر.

والناظر في الساحة الإسلاميّة يرى أعدادًا غفيرة، وأعمالًا كثيرة، ولكن التفرّق، والتنازع أوهنها وأرهقها، فهي بحاجة إلى حسن التعاون، ورصّ الصفوف، وإحكام التنظيم، وإتقان الأعمال؛ لتسلك سبل ربّها ذُلُلًا على هيئة مؤسسات، ومشاريع متعاونة، متآزرة. لقد نفر كثير من العلماء والدعاة وعامّة المسلمين لدفع الإثم والعدوان، ونصرة دين الله تعالى بتعليم القرآن والسنّة، وإعمار الحياة السياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، وغيرها وفق منهج الله تعالى، والفرص كثيرة لو أحسنت هذه الجموع المباركة التعاون في تطوير خططها ووسائلها لتوظيف الطاقات، وسدّ الثغرات، وابتعدت عن مواطن الغفلة، والمغامرات في اقتحام ما يجهل، واجتنبت التنازع، والركون إلى المتربصين بها الدوائر،

وتبـوَّأت كـلّ طائفـة مواقعهـا الـتي تحسـنها. فمـن بـذل جهـده في التزكيـة، فهـو في عمـل مبـارك، ومـن اقتصـر علـى التفقيـه، والتفهـيم، فهـو علـى خـير عظـيم، ومـن جاهـد في سـبيل التنزيـل والتطبيـق، فهـو محسـنٌ، وتعـاونهم علـى البرّ والتقـوى واجـب؛ لأن كـلّ فريـق يكمّـل الآخـر، والعلـم رحـم بـين أهلـه، فكيـف وهـم جميعًـا أهـل الله تعـالى وأوليـاؤه، ولا أعلـم جامعًـا للقلـوب أجـلّ وأكمـل وأجمـل مـن كتـاب الله تعـالى وسـنّة نبيّـه صـلى الله عليه وسلم.

ومـن يـروم الجمـع –والجمـع ممكـنٌ– فقـد ازداد فضـلًا، وزيادة الفضـل تحجـز صـاحبها عـن الإثم والعـدوان، والمسـلم لا يُسْـلِمُ أخـاه ولا يظلمـه، ولا يحقـره، بـل يشـكره، وينصـره. فعـن أبي هريـرة قـال: قـال رسـول الله – صـلى الله عليـه وسـلم– "لَا تَحَاسَـدُوا وَلَا تَنَاجَشُـوا وَلَا تَبَاغَضُـوا وَلَا تَـدَابَرُوا وَلَا يَبِـعْ بَعْضُـكُمْ عَلَـى بَيْـعِ بَعْـضٍ وَكُونُـوا عِبَـادَ اللَّهِ إِخْـوَانًا. الْمُسْـلِمُ أَخُـو الْمُسْـلِمِ لَا يَظْلِمُـهُ وَلَا يَخْذُلُـهُ وَلَا يَحْقِـرُهُ. التَّقْـوَى هَاهُنَـا وَيُشِـيرُ إِلَى صَـدْرِهِ ثَـلَاثَ مَـرَّاتٍ بِحَسْـبِ امْـرِئٍ مِـنْ الشَّـرِّ أَنْ يَحْقِـرَ أَخَـاهُ الْمُسْـلِمَ. كُـلُّ الْمُسْـلِمِ عَلَـى الْمُسْـلِمِ حَـرَامٌ دَمُـهُ وَمَالُـهُ وَعِرْضُـهُ"[65]. والتنـافس في الطاعـات، والمسـارعة في الخـيرات لا يُتركـان بسـبب مـا يقـع مـن التحاسـد، والتنـازع، فـإن هـوى النفـوس يـدفع بالتزكيـة، ونـزغ الشـيطان يـدفع بالـذكرى والموعظـة الحسـنة والسـعي في الإصـلاح والمجادلـة بالـتي هـي أحسن.

[65] رواه مسلم ح6706

وظيفة الاجتهاد والإفتاء بين الكتمان والعدوان:

أودّ أن أختم هذا الموضوع بالحديث عن وظيفة جليلة ألا وهي وظيفة الاجتهاد والإفتاء والتوجيه والهداية، فإن داء الكتمان يكون أخطر أثرًا، وأشدّ ضررًا حين يصيب هذا الجهاز المركزيّ في الأمة، فالعلماء والمفتون هم أُلو الأمر، وأئمّة الركب، ومصابيح الدُّجى، وقد علم الأعداء مكانة هذه الوظيفة وأثرها في هداية الأمّة، فهجموا عليها بكلّ ضراوة؛ ليضلوا الأمّة عن دينها، وقد أضرّ بنا كيدهم ضررًا بالغًا، فقد صنعوا مرجعيّات وقُدوات مزيّفة ضالّة مضلّة، وأزاحوا العلماء الصادقين بالقتل أو السجن، أو الإخراج من ديارهم أو غير ذلك، وساعدهم على ذلك المغفلون والمجرمون، فما أحوجنا اليوم إلى بيان وجه الحقّ فيما يتعلّق بهذا المنصب العظيم؛ لنحمي مركز التوجيه والهداية، ونسدّد أداءه، ومن ذلك بيان شروط الاجتهاد؛ لنميز الدَّعي الخبيث من المجتهد الصادق، وليُفتح باب الاجتهاد بضوابطه، ويُعدّ العلماءُ على بصيرة، فنعالج مشكلات الإفتاء، ونمنع التقدّم بين يديّ الله ورسوله.

وثمّة ضرورة مصاحبة لهذه القضية ألا وهي الدراسات الواقعية السديدة التي تقدّم للعلماء وصنّاع القرار الصورة الصحيحة للوقائع والحوادث، فالحكم على الشيء فرع عن تصوّره، فلا تصدر الفتاوي إلا وفق تصور بيّن، ثمّ تبنى القرارات والبرامج على فتاوي رشيدة؛ ليحيا من حيي عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة.

ولا بـدّ مـن مسـارين متـوازيين: مسـار التسـديد والمقاربـة تأهـيلًا وتفعـيلًا، ومسـار الوقايـة والحمايـة بكـفّ المعتـدين، وجَـزّ نواصـي الـرؤوس الجاهلـة؛ حـتى لا نضـلّ أو نُضـلّ، فعَـنْ عُـرْوَةَ بْـنِ الـزُّبَيْرِ قَـالَ: "قَالَـتْ لِي عَائِشَـةُ يَا ابْـنَ أُخْـتِي بَلَغَنِي أَنَّ عَبْـدَ اللَّهِ بْـنَ عَمْـرٍو مَـارٌّ بِنَـا إِلَى الْحَـجِّ فَالْقَـهُ فَسَـائِلْهُ فَإِنَّـهُ قَـدْ حَمَـلَ عَـنْ النَّـبِيِّ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ عِلْمًـا كَثِيرًا قَـالَ فَلَقِيتُـهُ فَسَـاءَلْتُهُ عَـنْ أَشْـيَاءَ يَـذْكُرُهَا عَـنْ رَسُـولِ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ عُـرْوَةُ فَكَـانَ فِيمَـا ذَكَـرَ أَنَّ النَّـبِيَّ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَـالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَـزِعُ الْعِلْـمَ مِـنْ النَّـاسِ انْتِزَاعًـا وَلَكِـنْ يَقْـبِضُ الْعُلَمَـاءَ فَيَرْفَـعُ الْعِلْـمَ مَعَهُـمْ وَيُبْقِـي فِي النَّـاسِ رُءُوسًـا جُهَّـالًا يُفْتُـونَهُمْ بِغَـيْرِ عِلْـمٍ فَيَضِـلُّونَ وَيُضِـلُّونَ، قَـالَ عُـرْوَةُ فَلَمَّـا حَـدَّثْتُ عَائِشَـةَ بِـذَلِكَ أَعْظَمَـتْ ذَلِـكَ وَأَنْكَرَتْـهُ قَالَـتْ أَحَـدَّثَكَ أَنَّـهُ سَمِـعَ النَّـبِيَّ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ يَقُـولُ هَـذَا قَـالَ عُـرْوَةُ حَـتَّى إِذَا كَـانَ قَابِـلٌ قَالَـتْ لَـهُ إِنَّ ابْـنَ عَمْـرٍو قَـدْ قَـدِمَ فَالْقَـهُ ثُمَّ فَاتِحْـهُ حَـتَّى تَسْـأَلَهُ عَـنْ الْحَـدِيثِ الَّـذِي ذَكَـرَهُ لَـكَ فِي الْعِلْـمِ قَـالَ فَلَقِيتُـهُ فَسَـاءَلْتُهُ فَـذَكَرَهُ لِي نَحْـوَ مَـا حَـدَّثَنِي بِـهِ فِي مَرَّتِـهِ الْأُولَى قَـالَ عُـرْوَةُ فَلَمَّـا أَخْبَرْتُهَـا بِـذَلِكَ قَالَـتْ مَـا أَحْسَـبُهُ إِلَّا قَـدْ صَـدَقَ أَرَاهُ لَمْ يَـزِدْ فِيـهِ شَـيْئًا وَلَمْ يَـنْقُصْ"[66]. فمـا أعظـم نفـع الحـديث الشـريف ومـا أكثـر بركاتـه، ومـا أحسـن ضـبط عبـد الله بـن عمـرو رضـي الله عنهمـا، ومـا أحكـم تثبُّـت الصـدّيقة بنـت الصـديق رضـي الله عنهمـا، ورحـم الله تعالى الرواة الأبرار والفقهاء الأخيار، ومن سار على نهجهم.

[66] رواه البخاريّ ح7307، ومسلم ح4829، واللفظ لمسلم.

من الدلالات اللغويّة والأصوليّة للآيتين:

"إِنَّ الَّـذِينَ يَكْتُمُـونَ مَـا أَنْزَلْنَـا مِـنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى" "الَّـذِينَ يَكْتُمُـونَ"، الاسـم الموصـول يعـمّ، ولفـظ "يكتمـون" ينحـلُّ إلى مصـدر، وهـو "الكتمـان"، وزمـن وهـو الحاضـر المتجـدّد؛ لأن الفعـل المضـارع يـدلّ علـى الحـدوث والتجـدُّد. قـال العلّامـة ابـن عاشـور: "قـال المفسـرون إن هاتـه الآيـة نزلـت في علمـاء اليهـود في كـتمهم دلائـل صـدق النـبي محمـد صـلى الله عليـه وسـلم وصـفاته وصـفات دينـه الموجـودة في التـوراة وفي كـتمهم آيـة الـرجم، وهـو يقتضـي أن يكـون اسـم الموصـول للعهـد، وعليـه فـلا عمـوم هنـا، وأنا أرى أن يكـون اسـم الموصـول هنـا للجـنس فهـو كـالمعرف بـلام الاسـتغراق فـيعمّ، ويكـون مـن العـامّ الـوارد علـى سـبب خـاصّ، ولا يخصـص بسـببه، ولكنـه يتنـاول أفـراد سـببه تنـاولًا أوليًّـا أقـوى مـن دلالتـه علـى بقيـة الأفـراد الصـالح هـو للدلالـة عليهـا؛ لأن دلالـة العـامّ علـى صـورة السـبب قطعيـة، ودلالتـه علـى غيرهـا ممـا يشـمله مفهـوم العـامّ دلالـة ظنيـة"[67]. والأسمـاء الموصـولة تشـبه أسمـاء الشـرط في العمـوم والإبهـام وترتُّـب مـا بعـدها عليهـا، إذا كانـت صـلة الموصـول دالّـة علـى التعليـل، والفعـل المضـارع إذا كان صلة للموصول يكون أبيَن من الماضي في إرادة التعليل.

"مَـا أَنْزَلْنَـا مِـنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى" و"مَـا" موصـول عـامّ، "الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى" "أل" فيهمـا للاسـتغراق، ومفهـوم المخالفـة أَنَّ مَـا كـان مـن غـير البينـات والهدى يجوز كتمانه.

[67] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج65/2

"مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ" "مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ" مفهومه: الحكم قبل البيان على خلاف ذلك، "ما" مصدرية والمصدر المنسبك منها والفعل بعدها يعمّ، "لِلنَّاسِ" عامّ، وَالْكِتَابُ: اسْمُ جِنْسٍ، فَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْكُتُبِ، "أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" الفعل المضارع يدلّ على تجدّد اللعنة "اللَّاعِنُونَ" صيغة مبالغة لاسم الفاعل محلاة ب"أل" تعمّ، والآية تدلّ على حرمة كتمان ما أنزل الله تعالى من العلم، "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا" "إِلَّا الَّذِينَ" "إلا" للاستثناء، "الذين" موصول عامّ، والاستثناء مخصّص لعموم المحكوم عليهم باللعنة، "فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ " أتوب: صيغة المضارع تفيد تجدّد إنزال التوبة لكلّ تائب، "وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" حصر التوبة والرحمة على الله تعالى، مفهوم القصر: غير الله ليس كذلك.

الخاتمة

الحمد لله ربّ العالمين الذي بنعمته تتمّ الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. الصبر... الصبر والرباط الرباط على ثغور الإسلام، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[68].

جعلني الله تعالى وإيّاكم ممّن اختصّهم بتعلُّم القرآن الكريم، وتعليمه، وفهمه وتدبُّره، والاهتداء بهديه، والدعوة إليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

[68] سورة آل عمران آية (200)